الحكومة العامة لإفريقيا الغربية الفرنسية

GOUVERNEMENT GENERAL DE L 'A.O.F

صفحات من التاريخ الإفريقي

PAGES D'HISTOIRE AFRIAINE

النقيب دوتوه لويوسكي

ترجمة
محمد فاضل ولد أجيه

CAPITAINE d'OTTON LOYEWSKI

Traduit par
Mohamed Fadel ould DIEH

الغزوات على آدرار
Rezzous sur l'Adrar



روفيسك – مطبعة الحكومة العامة
RUFISQUE – IMPRIMERIE DU GOUVERNEMENT GENERAL

1942

الفصل الحادي عشر

أم التونسي

آه، بقي لنا أن نطوي صفحة أخيرة من الدم والاحزان .

ففي السابع من يوليو 1932، نهبت مفرزة (مجبور) من السواعد خمسين جملا في منطقة يغرف Yaghref، على بعد ستين كلم جنوب غربي أطار. طاردها الرقيب أول محمد ولد أغناه الله، لحق بها فكبدها ثلاثة قتلى وأسيرا واحدا.

لكن الفرقة الصغيرة وقعت في طريق عودتها، على آثار غزوة ضخمة تزيد على المائة بندقية تتجه صوب الترارزة، فبادر حرسنا لاستنفار قائد الدائرة.

وعلى الفور أطلق جهاز الراديو بأطار التحذير؛ وردا عليه أبغلت الفرقة المتنقلة للترارزة أنها ستذهب لمقارعة اللصوص.

وساد الصمت.

وظلت موريتانيا القلقة، تصغي بحذافرها، إلى تلك الزاوية من الصحراء حيث تعتزم فرقتان مسلحتان المواجهة.

ودون إنقطاع ظل جهاز الراديو في أطار ينادي على أكجوجت وانواكشوط: « أطلب أخبار الغزوة. ماذا يدور على الغرب من آدرار؟ »

وأخيرا نزل ضمن حشرجة جهاز الاتصال اللاسلكي T.S.F خبر الكارثة.

بوغتت الفرقة المتنقلة للترارزة في الثامن عشر من أغسطس من قبل أولاد دليم على كثيب أم التونسي. وبعد أن هزمت تماما، إضطرت إلى أن تتقهقر، تاركة جثة الملازم دماكما هون De Mac-Mahon، وخمسة ضباط صف وعشرة قناصة وإثنان وعشرين من الحرس.

وعادت الغزوة أدراجها، بعد ان فقدت سبعة وعشرين رجلا، من بينهم القائد[1] (ظمين الغزوة)، وتكبدت عددا كبيرا من الجرحى.

---

[1] قائد معركة أم التونسي هو سيد ولد الشيخ ولد لعروصي، من قبيلة أولاد دليم، نخذ لديكات، وقد توفي ودفن شمال انواكشوط، إثر إصابته في المعركة، وقد نصبه الشيخ محمد المامون أميرا على الغزوة. كما شارك في أم التونسي من اولاد دليم احمد ولد الخطاط واحمد سالم ولد ميشان... وكان القائد يدعى تقليديا الظمين التي ربما كانت من الضمان.

ومن موريتانيا المذعورة تعالت صيحات الغضب. إلى متى سنظل على هذه الوضعية الدفاعية التي تكلفنا دماء أغلى جنودنا؟ أسنجرؤ على الذهاب اليهم، لنعاقب قطاع الطرق، حتى يذعنوا للسلام؟ لكن قائد الدائرة **بآدرار** كان قد أعطى الأمر، الذي طالما انتظرته القبائل الصديقة: « هبوا الى العدوا هبوا الى الرقيبات، وأولاد دليم! لقد نهبتم، وإغتصبتم، وأصبتم، قضى آباؤكم وإخوانكم تحت نيران قطاع الطرق! لقد طفح الكيل! هاهي البنادق، وهاهي الذخائر، خذوا الثأر! ردّوا على الطلقة بالطلقة، وعلى النهب بالنهب وعلى الغزوة بغزوة! فالسواعد والتهالات يقيمون بزمور، وأولاد القاطي[2] في نواحي عيون عبد لملك، فقطعانهم ضخمة، أني أعطيها اياكم، إذهبوا لإستلامها! ».

وأول من إنطلق، هم لكدادرة، سادة الصيد؛ فشكلوا مفرزة صغيرة، وقعت كالصاعقة في صميم مخيمات عيون عبد الملك Aioun Abed lemlek، فانتزعت قرابة الألف جمل من أولاد القاطي، الذين أصابهم الذعر.

ثم سلك سبيلهم أولاد عمني النبلاء، فأولاد غيلان الخطرون، ومشظوف الوجلون والطرشان الفقراء، النهمون: وتوالت الغزوات والمفارز؛ ولم يعد يمضي اسبوع دون أن ترى زرافات من المقاتلين عائدة إلى أطار مكللة بالنصر، دافعة أمامها مئات الجمال التي إنتزعت من مخيمات الشمال.

وفي نهاية السنة أقر خصومنا، أنهم خسروا خمسين رجلا وخمسة آلاف جمل. وطلبت مخيمات الرقيبات، التي أصبحت تعيش الرعب يوميا الصفح، وأخذت تبعث موفدا تلو الآخر إلى أطار.

وفي محاولة يائسة، بذل محمد المامون مسعى أخيرا. فحشد حملة ضخمة، وانطلق على رأسها في نهاية شهر دجنمبر، لتسديد الضربة القاضية للفرقة المتنقلة للترارزة، ودب الرعب بين قبائل غربي موريتانيا. لكنه عندما وصل على مقربة من المعسكر (المربع) ، علم ان حملة السلاح شكلوا طوقا حول الفرقة المتنقلة، وأن هذه الأخيرة قد استعادت قوتها، وكامل حيويتها، بعد أن تم تعزيزها بشكل مكثف. فلم يجد الشجاعة في نفسه، فأعطى الأمر بالتقهقر.

[2] اولاد القاطي : بطن من بطون الرقيبات.

أنها المحاولة الأخيرة للقائد المتمرس، الذي ذهب بعد أن زالت حظوته وغاب عن الأذهان، ليعيش حياة بعيدة عن الأضواء، على مشارف المراكز الإسبانية.

غير أن سبعين من أولاد دليم وأولاد اللب[1] لم يستجيبوا للشيخ فواصلوا طريقهم الى الجنوب الشرقي، فمروا ببئر إيكني Bir Igueni، ثم اكجوجت، حيث استولوا على قطيع صغير ووصلوا إلى حاسي الخشبة Hassi el khachbe.

وهناك،صادفهم الحظ، فوقعوا على قافلة محملة بالسكر لأحد ضباط الصف الأوروبيين.

و غير بعيد من الموقع توجد بئر ملح. وخلال لحظات ألقي بالأكياس الممزقة فيها، ثم إلتفت قطاع الطرق إلى عمال القافلة الذين أصابهم الذعر، وصاحوا بهم في غمرة الضحك: « سارعوا إلى آدرار، وأبلغوا الجميع بسلامتنا. كانت لديكم ماء ملح؛ حولناها لكم حلوة. لم يفعل أصدقاؤكم المسيحيون أبدا، مثل هذه الفعلة ».

كانت الغزوة قد ابتعدت واجتازت مرتفعات الصخور السوداء التي تخترق أمواج الرمال. وتخلف أحد الرجال لترتيب مقعده (راحلته). انه أحد الزرقيين، ذو وجه كالح ومقطب. اعتدل بتوأدة، ألقى بنظرة إلى رفاقه الذين يبتعدون، ثم اتجه الى إمرأة ظلت جالسة إلى جانب.

إنها الزوجة البلدية [1] لضابط الصف الذي إستأجر القافلة. كانت تحتضن بين ذراعيها طفلين، انهما ولديها، يبلغ كبيرهما خمس سنوات بالتحديد. وقف الزرقي أمامها: « أيتها الكلبة، التي خذلت دينك، عندما بعت نفسك لكافر». ثم أمسك فجأة بيد الطفل الأكبر، ودفع برجله الأم المذعورة، وسحب خنجره، ثم ذبح بكل وحشية الطفل، ورمى بالجثة قائلا: « ليحرق الله أباه! » وهكذا قضت هذه البذرة المسيحية.

وأخذت الأم المذعورة، تصرخ من الألم، وتشبثت بكامل قواها بإبنها الأصغر، الذي طالته بدوره، الأيادي الملطخة للقاتل. ركل المتوحش برجله وضرب بقبضته عسى أن يفك قبضتها. ولكن دون جدوى: فالمرأة التي تعتصر ألما، لم ترخ من قبضتها. أمسك

---

[1] اولاد دليم : احدى القبائل المسلحة ن الشمال(الساحل). واولاد اللب احدى القبائل المسحة ايضا وتجمع القبيلتين نفس شجرة النسب.

[1] الزوجة البلدية : Epouse indigène . ن النظام الاستعماري الفرنسي لم يكن لسكان المستعمرات حق المواطنة ، وكان يطلق عليهم les indigènes

الرجل الذي أنهكه هذا العراك، أذن الطفل وقطعها بطعنة من خنجر. ثم وثب إلى راحلته، وهو يقذف بسيل من الشتائم إلى ذات الحظ السيئ، وابتعد بخطى حثيثة ليلحق بزملائه.

سار هؤلاء بمشقة الى الجنوب: هاجمتهم الطائرات التي أرسلت من آدرار لتقصيهم، لكنهم تمكنوا دون عناء من الوصول إلى تكانت Tagant.

وتوغلوا شيئا فشيئا إلى الجنوب، يدفعون جمالهم، وتغريهم المنتجعات غير المعهودة.وفي أحد الأيام وصلوا امام حاجز، إستوقفتهم جدته. يتكون من أسلاك معدنية تنتصب على أعمدة طويلة ترتفع حوالي ثلاثة أمتار عن سطح الأرض، وتمتد من الشرق إلى الغرب على مد البصر. وفك بعض قطاع الطرق، ممن سبق أن سافروا إلى الجنوب لبيع الإبل، اللغز لزملائهم: « على هذه الأسلاك ينقل الفرنسيون أخبارهم. وبفضلها يتبادلون الأخبار بأحسن مما تكون على جواد مسرع ».

بعد ساعة، أبلغ الشخص المكلف بجهاز اتصال مركز المجرية Moudjeria ملازمه: « ملازمي، ألاك Aleg لم يعد يجيب: لا بد أن الخط قد قطع ».

ويوما بعد يوم تتوغل الغزوة في تكانت. وكان البلد خال من المدافعين عنه: فقد ذهب المقاتلون الى الشمال للاشتراك في الحملة، التي تعرضت لها مخيمات الرقيبات. وعلى مهل، كان قطاع الطرق يلتقطون بعض الجمال من هنا وهناك، لكن الكسب كان ضئيلا، إذ غادرت القطعان الضخمة المنطقة.

عزموا على أخذ طريق الشمال، فلفوا بآدرار من الشرق، وفي العشرين من يناير، وقعوا في الرويصات Rouéssatt على مخيم زيدان، الزعيم المهيب للشرفاء. حاول ابن هذا الأخير، وهو طفل يبلغ عمره عشر سنوات، أن يفلت، لكن الزرقي[1] الحانق لحمه، فلحق بالمسكين، وأمسك بيده اليسرى، لمة الشعر التي تعلو الجمجمة الحليقة، وبيده اليمنى ذبحه بطعنة خنجر. أغاظت هذه الفظاظة الهمجية، حتى زملاء القاتل: إنه إثم يستتبع الانتقام.

[1] الزرقي: نسبة الى الزرقيين احدى قبائل الشمال.

وبالفعل، فبعد أحد عشر يوما، وجد في مخيمات المتمردين المدمرة، طفلان صغيران ذبيحان حتى الودجين. فقد طبق أحد مقاتلي آدرار عدالة الصحراء الفجة والمتوحشة: الدم بالدم.

وفي حين كان قطاع الطرق يدفعون غنائمهم، ويبتعدون، نبهت الاستطلاعاتهم Les éclaireurs إلى اقتراب رجال مسلحين.

فانزلق فورا، كل واحد خلف باقة من العشب، و لم يلبث الضيوف ان اندفعوا في هلال مخفي وصامت من البنادق،. إنهم أولاد سلمون، مقاتلون من قبيلة أولاد غيلان، كانوا يترصدون الغزوة.

أذهلهم أول وابل من الأعيرة النارية، لكنهم تمالكوا بسرعة وردوا على الفور.

وبالاعتماد على عددهم ووضعيتهم المسيطرة فتح أولاد دليم جحيما على الخصم، في حين أغلقوا غليه ببطء فكي كماشة.

و أصبح أولاد سلمون في وضع يائس، لضعف الحماية، وقلة العدد، وارتفاع عدد القتلى والجرحى، وباتوا على وشك الحصار، و لم يبق لهم ان يعولوا الا على فرار سريع؛ لكن سمعتهم تأبى عليهم ذلك؛ ففى السنة الماضية، خلال المعارك التي دارت في آدرار، لوحظ تغيبهم واتهموا بالجبن؛ واليوم لن يتقهقر أي واحد منهم وسيدفعون جميعا حياتهم فداء لسمعة العشيرة.

و لم يقض هؤلاء جميعا، إذ وصل أبناء عمومتهم من تغموشة والطرش، يعززهم أهل أحجور، إلى موقع المعركة ايضا.

فازدادت الاخيرة ضراوة، وانقلبت الموازين، وحان وقت تطويق أولاد دليم، الذين أصبحوا يقاتلون للنجاة بانفسهم. و لم يلبث أن قتل زعيم الغزوة وملازماه. وأستغل قطاع الطرق هدوء المعركة ليلوذوا بالفرار، تاركين كافة الغنائم.

و لم يتمكن حملة السلاح من آدرار، الذين اصبحوا على وشك نفاد الذخيرة، من الاندفاع في الملاحقة، وبعثوا على جناح السرعة بعض الجمال الى شنقيط لأخذ أكياس من الذخيرة.

وفي اليوم التالي وصلت الفرقة المتنقلة لتشيت إلى عين المكان واقتفت الآثار.

وفي الثالث والعشرين لحقت بالغزوة، فقتلت منها رجلين. وفي السابع والعشرين دخل الفارون من جديد في معركة مع مقاتلين من أولاد غيلان، خسروا خلالها ايضا إثنين من رجالهم.

كلفتنا هذه المعارك، خمسة عشر قتيلا، مقابل عشرين من أولاد دليم.

وتمكن المتبقون على قيد الحياة من اللحاق بخيامهم، وأعز ما لديهم من مناقب المجد، قتلهم طفلين ما بين خمس وعشر سنوات.